خاتمة

رؤية استشرافية في تأصيل نظرية الفن الإسلامي

أحدثت المعرفة الاستشراقية عن الفن الإسلامي بعامة، ونظريته الجمالية بخاصة، تأثيراً واضحاً في الثقافة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة، تمثلت مظاهره في العناية بالواقع التاريخي والحضاري لهذا الفن، ودراسته من النواحي الفلسفية والوظيفية وغيرها من المجالات المعرفية المتعلقة بهذا الفن، بما أدى إلى تعلق نظرية الفن الإسلامي على مستويات: المفهوم والمصطلح، والرؤية والمنهج، فضلاً عن بنيتها المعرفية، التي تراوحت نقدياً بين آفاق الإبداع الفني المفتوحة، وحدود التصنيف العلمجمالي لأنماط هذا الإبداع وأجناسه التشكيلية، تعلقاً معرفياً شبه مصيري بالواقع الغربي الحديث لعلم الجمال وفلسفة الفن؛ إذ يمكن القول لذلك إن نظرية الفن الإسلامي تكاد تكون إلى حد كبير من بنات هذه المعرفة الاستشراقية، أو يمكن القول على الأقل بشأن هذا الصنيع المعرفي الغربي لنظرية الفن الإسلامي، وكأنه كان وربما صار بديلاً معرفياً مفترضاً لنظرية هذا الفن شبه الغائبة في فضاء التراث الفكري والمعرفي الإسلامي، كما هو الاعتقاد الاستشراقي عند بعض مؤرخي هذا الفن والباحثين فيه، من الذين توسع هذا

الاعتقاد عندهم وتمدد إلى غياب النظرية الجمالية الإسلامية أصلاً، أو تهافت المفهوم الإسلامي لعلم الجمال وفلسفة الفن على أقل تقدير.[1]

وما يمكن أن يقال بشأن ذلك كله كذلك، هو أنه ربما كانت تلك المعرفة الاستشراقية دافعاً فعلياً قوياً أنتج رد فعل مساوياً له في القوة ومعاكساً له في اتجاه تأكيد وجود علم الجمال الإسلامي أساساً ومنطلقاً لنظرية الفن الإسلامي؛ إذ حاول بعض الباحثين العرب والمسلمين المعاصرين استكشاف معالم هذا العلم وصناعة هذه النظرية بمواد التراث الفكري والفلسفي العربي والإسلامي، ونصوصه المستلة من متون اللغة والأدب والتاريخ، فضلاً عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، من خلال قراءة الجمالي والفني في هذا التراث بعين غير استشراقية، تعمل على تأصيل نظرية الفن الإسلامي في ضوء علم الجمال الإسلامي الواسع المفهوم والدلالة والموضوعات، البعيدة نسبياً عن المجال المعرفي لعلم الجمال الفلسفي Aesthetics المحدد منهجياً بما يعرف بالجمال الفني، المتمثل في أعمال الفنانين الإبداعية؛ إذ إن رؤية الجماليين الإستطيقيين تكتفي -نوعاً ما- بالنظر "إلى الجمال على أنه الهدف

(1) قلما نجد في الدراسات الجمالية الحديثة ما يشيد بعلم الجمال الإسلامي، بل قلما نجد ما يشير حتى إلى أن هناك علماً إسلامياً للجمال. انظر على سبيل المثال:
- توفيق، **تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي**، مرجع سابق.

الوحيد للفن"[1] البصري التشكيلي، الذي يتمثل بشكل رئيس في العمارة والتصوير، وما شاكلهما من أجناس الإبداع الإنساني.

لقد قامت المحاولات المعاصرة لبناء الجمالية الإسلامية على المعنى الواسع والدلالة المفتوحة للجمال في كل شيء من الكون والطبيعة والحياة والإنسان، والعمل والسلوك والإبداع والصورة، وغير ذلك مما في التراث الفكري الإسلامي، وتقدم بعضها بتعريف عام لها يتمثل في أنها يمكن أن تكون "تخصصاً من تخصصات العلوم الإنسانية التي تعنى بدراسة الجمال من حيث هو مفهوم في الوجود، ومن حيث هو تجربة فنية في الحياة الإنسانية. فالجمالية إذن علم يبحث في معنى الجمال من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه ومقاصده. والجمالية في الشيء تعني أن الجمال فيه حقيقة جوهرية وغاية مقصدية، فما وجد إلا ليكون جميلاً."[2]

هذا المفهوم العام للجمالية يقوم على دراسة الجمال في الأشياء، بالمفهوم المطلق للشيء؛ كل شيء؛ مادي أو معنوي، طبيعي أو صناعي، تقليدي أو إبداعي، أدبي أو فني. ويتضح في رفقة هذا المفهوم العام للجمالية وفي سياقه الدلالي، مفهومٌ خاص لجمالية كل شيء من تلكم الأشياء، وبالتالي تعدد جمالياتها بعدد

---

(1) ستيس، ولتر. **معنى الجمال: نظرية في الأستطيقا**، ترجمة: إمام عبد الفتاح، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000م، ص94.

(2) الأنصاري، فريد. "مفهوم الجمالية بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية"، **مجلة حراء**، إستانبول، س1، عدد1، 2005م، ص22.

هذه الأشياء، خاصّة وأن هذا المفهوم العام للجمالية يبدو توفيقياً أو تلفيقياً أو ازدواجياً بين مفاهيم (الجمالية التشكيلية:الإستطيقا) و (الجمالية الأدبية: البويطيقا)؛ وتمظهراتهما الطبيعية في الكون والإنسان، وتطبيقاتهما الصناعية، بخاصة في مجالي الفن والأدب، كون مصطلح الجمالية هذا قد استعمل في النقد الأدبي الحديث، للدلالة على أن "الجمال هو القيمة الأولى للنص، وإنه لا عبرة [فنية] بما لم يُبنَ [من النصوص] على ذلك؛ إذ الوظيفة الأولى للنص هي أن يكون جميلاً."[1]

لقد ظل مفهوم (الجمالية الإسلامية) إشكالية معرفية واضحة في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، بسبب ازدواجية دلالته على دراسة كل من الأدب والفن، وبسبب" ما تثيره هذه العبارة من مشكلات منشؤها تشعب مفهوم (الجمالية) في ذاته، وتنوع مظاهر التفكير الجمالي وتعدد النظريات الجمالية وتفرع تطبيقاتها. ومما يزيد الأمر تعقيداً إلحاق صفة (الإسلامية) باصطلاح ينتمي إلى المجال الثقافي الغربي، ويُعدُّ ظهوره متأخراً حتى بالنسبة إلى ذلك المجال كله."[2]

ولا تزال هذه الإشكالية تلازم القراءات العربية والإسلامية، الهادفة من الناحية المنهجية –على الأقل– إلى التمييز بين المستويات

(1) عروي، محمد إقبال. **جمالية الأدب الإسلامي**، الدار البيضاء: المكتبة السلفية، ط1، 1986م، ص94.

(2) اللواتي، **نحو نظرية للجمالية الإسلامية**، مرجع سابق، ص151.

أو المجالات المعرفية، الأدبية والفنية، وغيرهما لعلم الجمال الإسلامي، خاصة وأن العودة التأصيلية إلى المتن الإسلامي لهذا الموضوع وتراثه الفكري تبدو -في الغالب- كأنها تتجه، معرفياً ومنهجياً ونقدياً، نحو الجمالية الأدبية أكثر من اتجاهها نحو الجمالية الفنية.

وعلى الرغم من الوحدة أو التكامل المعرفي للمصطلح الجمالي الإسلامي بين هذين الحقلين، تبرز الحاجة الأدبية إلى البحث عن متن عربي إسلامي مناسب لأن يمثل النظريات الفلسفية والفنية والنقدية، وربما غيرها من النظريات المكونة للجمالية الإسلامية ببعدها الإستاطيقي الفني، وذلك عبر قراءة موضوعية هادئة وهادفة إلى استكشاف واستجلاء واستنباط الرؤية أو النظرية الجمالية الإسلامية المستقلة عن الرؤية أو النظرية الجمالية الغربية، أياً كانت طبيعتها الفلسفية.

وقد تكون هذه المحاولات حاجة لسد الفراغ المعرفي، مثلما هي ضرورة فكرية وعلمية ومنهجية قائمة في السياق المعرفي الإسلامي للجمال، بوصفه إحدى القيم العليا في الوجود وفي المعرفة وفي الإبداع الإنساني. ومن الأنسب معرفياً، أن تنأى محاولات التأصيل هذه، وكذلك قراءاته العربية الإسلامية المعاصرة بنفسها عن الاتجاه العام والشمولي في بحث الظاهرة الجمالية الإسلامية، ومن الأنسب منهجياً أن تتجه إلى بناء مفهوم أكثر دقة ومناسبة لنظرية الفن الإسلامي داخل الإطار المعرفي العام لعلم الجمال بوصفه مجالاً

معرفياً، فلسفياً ونقدياً، عاماً وإنسانياً، يتعامل مع الظاهرة الجمالية حيثما كانت في المكان والزمان، ولكنه يمكن أن يتخصص بدراستها في فضاء معرفي واجتماعي معين من التطبيق والخصوصية؛ إذ إن عمومية علم الجمال الوارفة في المعرفة الإنسانية هي الوجه الآخر لخصوصيات النظريات والتطبيقات الجمالية في مختلف المجالات المعرفية والفضاءات الاجتماعية والبنى الثقافية للوعي الإنساني، الذي قد يتحرك تطبيقاً في مجال معرفي معين، أو في فضاء اجتماعي خاص، أو في بنية ثقافية مستقلة عن سواها في الموضوع الجمالي، الذي تتحدد خصوصيته النظرية والتطبيقية في الرؤية والمنهج مثلما تتحدد في المفهوم والمصطلح.

إن كلاً من الرؤية والموضوع، والمفهوم والمصطلح، فضلاً عن المنهج الإستاطيقي، تكاد تكون هي المحاور المعرفية الأساسية لأية عملية تأصيل معرفية لنظرية الفن الإسلامي بوصفها "الجمالية التطبيقية أو الخاصة، فنستعمل عبارة الجمالية الإسلامية في دراسة مختلف الأشكال الفنية التي شهدتها حضارة الإسلام؛ كظواهر خاصة في المكان والزمان."[1]

إن البحث التأصيلي لنظرية الفن الإسلامي ينبغي أن يجري داخل المعرفة الجمالية الإسلامية، وبنيتها العلمية الخاصة، وأن يتمثل بتطبيقاتها الفنية الخالصة، ويعنى نقدياً بدراسة قوانينها الإبداعية المتميزة، في إطار الوعي الفلسفي والحضاري الإسلامي.

(1) المرجع السابق، ص151.